المحاضرة السادسة: كتاب" العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده" لابن رشيق القيرواني.

يُعد كتاب العمدة من أهم مؤلفات ابن رشيق في المغرب العربي في القرن الخامس وإلى يومنا هذا والناس تستفيد من جواهر إبداعه النقدي في الشعر والشعراء، حيث يُعتبر الركيزة الأساسية في مناقشة الشعر وإبداء الرأي فيه. وبهذا سنحاول التركيز على أهم القضايا الشعرية التي تناولها الكتاب.

القضايا الشعرية التي تناولها ابن رشيق في كتابه:

1- دواعي الشعر:

يقصد ابن رشيق بدواعي الشعر ذلك الاستعداد النفسي من قبل الشاعر لإنتاج نصّه[i]، باعتبار القصيدة تُثقل كهل صاحبها وهو يعتصر عقله وذهنه حتى تخرج تلك الكلمات مفعمة بالمشاعر والأحاسيس، نتيجة ذلك المخاض الفني الذي يتواثب إلى قريحة الشاعر، يقول الفرزدق في هذا الشأن: تمر عليّ الساعة وقلع الضرس من أضراسي أهون عليّ من عمل بيت من الشعر.[ii] كذلك تحدّث ابن رشيق عن شروط الابداع وقابليته، فأفرد لها باب بعنوان "عمل الشعر وشحذ القريحة" نقل فيه أخبار الشعراء في محاولتهم شحذ قرائحهم وتهيئة الجو النفسي الملائم لهم.[iii]

ولقد سئل كثيّر: كيف تصنع إذا عسُر عليك الشعر؟ فقال: أطوف في الرباع المخلية والرياض المعشبة فيسهل عليّ أرْصنه ويُسرع إليا أحسنه. وقد تفاوت جرير وأبو نواس في صناعة الشعر فالأول يتخذ من الاعتزال في الليل وسيلة، والثاني من شُرب الخمرة طريقة فهذه الأمور كلّها إذا تقدح زناد الفكر وتبعث على القول[iv]، فالشعر هي مرحلة من الوُجد تمر على الشاعر فيقول قولا بديعا، أو لحظة إلهام قد لا تمر على الشاعر في وقت إدراكه وتعقّله.

2- ماهية الشعر:

هذا الباب كثُر رواده وقلّ فقهاء مدلوله، فمن تجشم عناء وضع المدلول لماهية الشعر نزر قليل من النقاد والشعراء، إذ تعددت المفاهيم ووجهات النظر والمدلولات، بتعدد الأذواق والتكوين الفني الثقافي والإبداعي للناقد، فنجد من قلة القلة من فكره واسع ونظره ثاقب وثقافته مجلية في نقده وإبداعه يضع حدا للشعر ضمن باب حد الشعر وبنيته" حيث يقول: " الشعر يقوم من بعد النية من أربعة أشياء، وهي اللفظ، والمعنى والوزن والقافية، فهذا هو حد الشعر.[v] وبهذا التعريف الماتع نجده قد حافظ على تعريف قدامة بن جعفر مع زيادة في جوهر الشعر ولبه وهي نية قول الشعر ونسجه. كما قدّم تعريفا موجزا في لفظه كبيرا في معناه تحت باب الشعر والشعراء بقوله "الشاعر هو الذي يشعر بما لا يشعر به غيره"[vi] فهو يختلف عن غيره كونه يقول شعرا، كونه يشعر بشعور يختلف عن شعور غيره، شعور يجعل المعاني تتدفق تدفق ماء زلال، شعور يجعل من النسيج اللغوي نسيجا ليس كمثله نسج. فتكون المعاني غزيرة مقابل ألفاظ قليلة.

3_ اللفظ والمعنى:

قضية اللفظ والمعني قضية قديمة جديد، فالألفاظ والمعاني خطان متوازيان لا غنى عنهما، فاللفظ وجه المعنى، لا يتم أحدهما إلا بتمام الآخر، مع اختلاف بين النقاد أيهما أفضل، وأيّهما يفي بالغرض، وأيّهما وجب التركيز عليها، كل هذه الأسئلة جعلت للفظ أنصار وللمعنى أنصار، وفي هذا الشأن نجد ابن رشيق قد خص اللفظ والمعنى بباب سمّاه " باب اللفظ والمعنى جاء فيه قوله:" اللفظ جسم روحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه ويقوى بقوته، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ، كان نقضا للشعر وهجنة عليه، كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل والعور وما أشبه ذلك من غير أن تذهب الروح، وكذلك إن ضعُف المعنى واختل بعضه، كان اللفظ من ذلك أوفر حظ، كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح..."[vii]

4- جمالية التلقي في القول الشعري:

ابن رشيق القيرواني كان ذكيا بوضع المفتاح الذي يجعل الذات ترتبط بالموضوع ارتباط العبد بسيده، وبه تتم العملية الإدراكية الجمالية بقوله:" الشعر قفل أوّله مفتاحه، وينبغ للشاعر أن يجوّد ابتداء شعره لأنّه أوّل ما يقرع السمع منه، وبه يستدل على ما عنده من أوّل وهلة"[viii] فابتداء الشعر مفتاح للسلطة على المتلقي، وبه تتم العملية التفاعلية بين القائل وسامعه. ويقول ابن رشيق أيضا:" وللشعراء مذاهب في افتتاح القصائد بالنسيب لما فيه من عطف القلوب واستدعاء القبول بحسب ما في الطباع من حب الغزل، والميل إلى اللهو والنساء، وإنّ ذلك استدراج لما بعده"[ix] وبهذا فكرة الاستدراج تتعلق أيضا بمعرفة المتلقي والمفتاح الذي يتم به فتح قفله، وبهذا نجعل لكل مقام مقال.

الحاصل أنّ كتاب العمدة كتاب مميز في بابه قوي في بناءه النقدي، والشيئ الجميل في الكتاب أنّه لا يستبد برأيه، بل هو عادل في قصده فيضع الرأي والرأي الآخر وبهذا نجد الكتاب مليء بآراء النقاد الآخرين في مجال الشعر والشعراء، بهذا نجد أنّ الشعرية قد أفادة منه كثيرا، لغزارة العلم بالشعر والشعراء فيه وسلاسة أفكاره.

الحواشي:

---

[i] – بشير خلدون، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 1981م، ص137.

[ii] – أبو علي الحسن ابن رشيق المسيلي القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د.ط، 2007م، ج1، ص184.

[iii] – ابتسام مرهون الصفار، رؤية معاصرة في التحقيق والنقد، دار صفاء، عمان، الأردن، ط1، 2008م، ص305.

[iv] – أبو علي الحسن ابن رشيق المسيلي القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج1، ص185.

[v] – المصدر نفسه: ص108.

[vi] – المصدر نفسه : ص104.

[vii] – المصدر نفسه: ص112.

[viii] – المصدر نفسه: ص195.

[ix] – المصدر نفسه: ص201.